الكتاب الثالث

حياة محمد (ﷺ)

أ.د. محمد حسين هيكل
تحليل وعرض أ.د. محمد شفيع السيد

السيرة الذاتية للدكتور محمد حسين هيكل:

في قرية كفرغنام إحدى قرى مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية، وُلِد محمد حسين هيكل في (١٢ من ذي الحجة ١٣٠٥هـ = ٢٠ من أغسطس ١٨٨٨م)، ونشأ في أسرة على جانب من الجاه والثراء، والتحق بكتاب القرية، حيث حفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ولما بلغ السابعة التحق بمدرسة الجمالية الابتدائية بالقاهرة، وظلَّ بها حتى أتم دراسته بها، وحصل على شهادتها الابتدائية سنة (١٣١٩هـ = ١٩٠١م)، ثم انتقل إلى المدرسة الخديوية، وأتم دراسته بها سنة (١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م)، ثم التحق بمدرسة الحقوق الخديوية، وفي أثناء هذه الفترة توثقت صلته بأحمد لطفي السيد وتأثر بأفكاره، والتزم بتوجيهاته، فأكبَّ على قراءة الأدب العربي القديم، في أمهاته المعروفة كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والبيان والتبيين للجاحظ، وطالع عيون كتب الأدب الإنجليزي، وبعد تخرجه في مدرسة الحقوق سنة (١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م) سافر على نفقته الخاصة إلى باريس؛ ليتم دراسته في الحقوق، ويحصل على إجازة الدكتوراة.

واغتنم هيكل فرصة وجوده في فرنسا، فالتحق بمدرسة العلوم الاجتماعية العالية، وحصل فيها على دراسات مختلفة، وواظب على الاستماع لمحاضرات عديدة في الأدب الفرنسي، وأقبل على قراءة الأدب الفرنسي بعد أن أتقن الفرنسية وأصبح عسيرها ميسورًا له، هذا إلى جانب اهتمامه بزيارة المعارض، والمتاحف، والآثار.

وظلَّ هيكل في باريس ثلاث سنوات حصل في نهايتها على درجة الدكتوراة في الحقوق من جامعة باريس سنة (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م) عن دين مصر العام.

بين الصحافة والعمل الحزبي

ولما عاد هيكل من باريس اشتغل بالمحاماة في مدينة المنصورة فترة قصيرة، ثم تركها بعد اختياره للتدريس في الجامعة سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م)، ولم ينقطع طوال عمله عن ممارسة العمل الصحفي، وكتابة المقالات السياسية والفصول الأدبية في جريدة الأهرام، و«الجريدة» صحيفة حزب الأمة التي كان يرأسها أحمد لطفي السيد، ثم تخلص هيكل من قيد الوظيفة واستقال من الجامعة سنة (١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م) وتفرَّغ للعمل السياسي، وترأس تحرير جريدة «السياسة» لسان حزب الأحرار الدستوريين الذي تكوَّن في هذه السنة، وكان هيكل أحد أعضاء مجلس إدارته ومن نجومه اللامعين.

ولما أنشأ الحزب جريدة أسبوعية باسم «السياسة الأسبوعية» تولَّى هيكل رئاسة تحريرها سنة (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م)، وكانت ميدانًا لنشر البحوث الأدبية والتاريخية والسياسة، وتولَّى تحريرها والكتابة فيها نفر من كبار الكتاب وأئمة الأدب، مثل: طه حسين، وتوفيق دياب، ومحمود عزمي، ومحمد عبد الله عنان، وعبد العزيز البشري، وشهدت صفحاتها معارك فكرية حامية، مثل معركة الشعر الجاهلي التي فجَّرها طه حسين، وعلى صفحاتها نشر هيكل فصولًا من كتابه «حياة محمد».

ثم وقع عليه الاختيار ليعمل وزيرًا للمعارف في الوزارة التي شكلَّها محمد محمود سنة (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م)، لكن حياتها كانت قصيرة فاستقالت في السنة التالية، ثم عاد وزيرًا للمعارف للمرة الثانية سنة (١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م) في وزارة حسين سري، وظلَّ بها حتى سنة (١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م)، ثم عاد وتولى هذا المنصب مرة أخرى في سنة (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٤م)، وأضيفت إليه وزارة الشئون الاجتماعية

سنة (١٣٦٥هـ / ١٩٤٥م).

كما اختير سنة (١٣٦٠هـ / ١٩٤١م) نائبًا لرئيس حزب «الأحرار الدستوريين»، ثم تولى رئاسة الحزب سنة (١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م)، وظلَّ رئيسًا له حتى ألغيت الأحزاب بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وفيما بين ذلك تولى رئاسة مجلس الشيوخ سنة (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م) وظل يمارس رئاسة هذا المجلس التشريعي أكثر من خمس سنوات أرسى خلالها تقاليد دستورية أصيلة بمعاونة بعض أعضاء المجلس.

وتولَّى هيكل تمثيل مصر في التوقيع على ميثاق جامعة الدول العربية سنة (١٣٦٥هـ / ١٩٤٥م)، كما تولى تمثيلها في كثير من المحافل الدولية، فمثلها رئيسًا لوفد مصر في الأمم المتحدة أكثر من مرة سنة (١٣٦٦هـ / ١٩٤٦م) وما بعدها، وكانت له مواقف محمودة في قضيتي مصر وفلسطين.

في مناحي الأدب والفكر:

وعلى الرغم من اشتغال هيكل بالحياة السياسية وانغماسه فيها بالعمل الصحفي مرة، أو باعتباره واحدًا من نجومها الذين خاضوا أعباء الوزارة، ومارسوا الزعامة الحزبية، فإن نشاطه الأدبي ظلَّ خصبًا، وتوالت كتبه ومؤلفاته تضرب في ميادين مختلفة شملت القصة، والتاريخ، والسير، والنقد الأدبي، وأدب الرحلة، وهو فيما يكتب أديب أصيل، متبوع لا تابع، رائد يفتح لغيره آفاقًا فسيحة في ميادين الأدب، وطالب حق يرتاد كل سبيل ليجد منافذ النور، لا معجب برأيه مغرور بما يكتب، مفتون به، لا يرى الحق في سواه؛ ولذلك انتقل من دائرة الدعوة إلى الحضارة الغربية تارة، وإلى الحضارة الفرعونية تارة أخرى، واستقر في ميدان الفكر الإسلامي داعيًا له يرى فيه وحده البذر الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس، وتجعلها تهتز وتربو.

زينب أول رواية عربية

وكانت القصة أول ميدان يرتاده الدكتور هيكل، فكتب قصته «زينب» وهي أشهر أعمال هيكل الثقافية، وقد تختلف الأقوال حول قيمتها الفنية وجوانبها المختلفة، لكنها تتفق في كونها أول رواية عربية تلتزم بقواعد القصة الفنية، وأنها كانت بداية الانطلاق لأعمال روائية لكبار الكتاب من أمثال العقاد، وطه حسين، والمازني، وتوفيق الحكيم، حتى بلغت النضج وقاربت الكمال على يد نجيب محفوظ الذي أخلص لعمله القصصي فلم ينشغل بما سواه، على النقيض من هؤلاء الرواد، الذين كانت لهم اهتمامات مختلفة، وإسهامات متنوعة في ميادين الأدب والفكر.

وكما بدأ هيكل حياته كاتب قصة ضمنها أيضًا بقصته «هكذا خلقت»، وفيما بين هذين العملين كتب فصولًا قصصية نشرها في بعض الصحف، وضمتها بعض كتبه، مثل: ثورة الأدب، وفي أوقات الفراغ.

في ميدان التاريخ الإسلامي

تأثَّر الدكتور هيكل بالحضارة الغربية ومنجزاتها، فجاش قلمه وهو في فرنسا بمقالات تمجد الحضارة الحديثة، وتتخذ من أدباء فرنسا ومفكريهم موضعًا لتحليله الأدبي، وخصّ جان جاك روسو بمقالات تحليلية، جمعها بعد ذلك في كتاب بعد عودته إلى مصر، ثم تزعزعت ثقته بالحضارة الغربية بعد الحرب العالمية الأولى، وشاهد دعاة الحضارة والإنسانية يتحولون إلى وحوش كاسرة لا تراعي حقًّا للشعوب ولا تحترم عهدًا، ولا تقيم وزنًا لحقوق الإنسان، ثم ولَّى وجهه شطر الحضارة الفرعونية القديمة، فانخدع هيكل بدعاتها، وكانت أنفسهم تنطوي على فكرة خبيثة تستهدف بالحديث عن عظمة الحضارة الفرعونية توهين رابطة مصر بالإسلام، وإثارة النزعة الوطنية.

ثم قطع ذلك كله حملة التنصير المسيحي التي اجتاحت مصر سنة (١٣٥٢هـ /

١٩٣٣م) ورأى نفرًا من أصحاب الأقلام يهونون من شأنها، فاندفع هيكل وكان قد استبان له الطريق يهاجم في ضراوة حملات المنصرين، ويوجه نقدًا صارخًا للحكومة على صمتها المهين على ما يحدث في أرض الكنانة، وبدلًا من أن تواجه الحكومة هذه الحملات التي نشط بعضها في أنحاء مصر استدعت هيكل للتحقيق معه، وحكم عليه بغرامة مالية بتهمة الوقيعة بين الأديان، بعد أن جاهر بأن إدارة الأمن الإنجليزي في وزارة الداخلية المصرية هي التي تتحمل تبعة هذه الجرائم.

كانت هذه الحملة نقطة تحول في حياة الدكتور هيكل بعد ما تكشفت له وسائل الغرب في خداع الشرق، ومحاولة الازدراء بماضيه الثقافي والحضاري، فاتجه إلى التراث الإسلامي باحثًا ومنقبًا، وكان التاريخ الإسلامي هو ميدان بحثه، فانكبَّ على مطولاته وحولياته قارئًا دون ملل، لا يعيقه اتساع القول وتضارب الروايات عن الاستمرار في الدرس والفهم، وكان ثمرة ذلك كله عددًا من عيون كتب التاريخ تجمع إلى عمق التناول، جمال العرض، وبراعة الأسلوب، وإحكام الفصول، ويعبِّر هو عن ذلك بقوله: «وكان من أثر هذه الحركة (التنصيرية) وموقفي منها أن دفعني للتفكير في مقاومتها بالطريقة المثلى التي يجب أن تقاوم بها، ورأيت أن هذه الطريقة المثلى توجب عليَّ أن أبحث حياة صاحب الرسالة الإسلامية ومبادئه بحثًا علميًّا، وأن أعرضه على الناس عرضًا يشترك في تقديره المسلم وغير المسلم».

حياة محمد.. السيرة بشكل جديد

وكان كتابه الكبير «حياة محمد» هو باكورة أعماله الإسلامية، تناول فيه بأسلوب طلي حياة النبي ﷺ، وردّ على آراء المتجنين من كُتَّاب الغرب على سيرة الرسول ﷺ في منطق وبراعة، وختم كتابه بمبحثين عن الحضارة الإسلامية كما صوَّرها القرآن الكريم ومقارنتها بالحضارة الغربية، وخصَّص البحث الآخر للرد على مزاعم بعض المستشرقين حول بعض المواقف الإسلامية.

وأحدث ظهور الكتاب دويًّا هائلًا، وأقبل الناس على قراءته على نحو غير مسبوق، وتناوله المفكرون والكتاب فأنصفه بعضهم، وغض من قيمته آخرون، لكن على أية حال كان الكتاب فتحًا جديدًا في كتابة السيرة النبوية على هذا النحو الشائق الذي جعل فضيلة الإمام الأكبر محمد مصطفى المراغي يكتب مقدمة للكتاب، جاء فيها: «وقد وُفِّق الدكتور هيكل في تنميق الحوادث، وربط بعضها ببعض، فجاء كتابه عقدًا منضدًا وسلسلة متينة محكمة الحلقات، يجعل القارئ مطمئن النفس راضي القلب ليستمتع بما يقرأ».

ثم أتبع كتابه «حياة محمد» بكتاب بديع عن رحلته في أرض الحجاز بعنوان «في منزل الوحي»، كتبه بأسلوب رفيع، ووقف على الأماكن التي وقف فيها النبي ﷺ يتلمس سيرة النبي ﷺ، ويستخلص العبرة والمثل، والكتاب يجمع بين المشاهدة العيانية، والبحث التاريخي، والرؤية العاطفية في بيان خلاب، وعناية بأدق التفاصيل.

ثم استكمل الكتابة بعد تناول سيرة النبي ﷺ بالحديث عن خلفائه، فأخرج كتابيه «الصديق أبو بكر»، و«الفاروق عمر»، ففتح المجال لكتابة التاريخ الإسلامي بعد أن عبد الطريق لمن جاء بعده ليرتادوا سبيلًا مهَّده بقلمه وعقله، والكتابان ليسا ترجمة للصحابيين الجليلين، وإنما هما تأريخ للعصر، وعرض لتطوره، وبيان لحركته.

ولم يسلم الكتابان من نقد وُجِّه إليهما، بعضه كان مغاليًا مسرفًا في النقد، غير أن معظمه جاء ليقوِّم الكتاب لا ليهدمه، ويبين جوانب تميزه لا ليغمطه حقه، وحسب الكتابان أنهما لا يزالان حتى اليوم مرجع الباحثين ومهوى القراء، بعد أن حبَّبهم هيكل في مطالعة صحائف العزَّة، ودروس المجد، وأمثلة الكرامة في أعمال قادة الإسلام وأئمته.

مذكرات في السياسة المصرية

وإلى جانب هذه الأعمال الإبداعية والفكرية كتب الدكتور هيكل كتابه «مذكرات في السياسة المصرية» خرج جزءان منها في حياته، وصدر الجزء الثالث بعد وفاته، وهذا الكتاب من أهم أعمال هيكل، وتبدأ المذكرات بنشأة صاحبها السياسية عام (١٣٣١هـ = ١٩١٢م)، وينتهي الجزء الأول منها بتوقيع معاهدة١٩٣٦م، ويبدأ الجزء الثاني منها وينتهي بقيام ثورة ١٩٥٢م، حيث يبدأ الجزء الثالث. وهذه المذكرات مرجع هام في التاريخ السياسي المصري، وإن كان الحياد فيها عسيرًا؛ لأن لصاحبها موقفًا ورأيًا، وعلى الرغم من أهميتها فلا يمكن الاعتماد عليها وحدها دون الرجوع إلى المصادر الأخرى؛ لأن المؤلف كتبها ببراعة فائقة قد تنزلق إليها قدم الباحث العجول الذي لا يمتد بصره إلى غيرها من المصادر.

وإلى جانب ذلك له عدد من الكتب الأخرى مثل: في أوقات الفراغ، وعشرة أيام في السودان، وشخصيات مصرية وغربية، وولدي، والشرق الجديد.

شخصية هيكل

يُجْمِع كثير من المعاصرين للدكتور محمد حسين هيكل على أنه كان وديع النفس، جم الأدب، يميل إلى الدعابة في مجالسه، حاضر البديهة والمنطق الأدبي السليم، مثالًا للتواضع، لم تغير المناصب شيئًا من أخلاقه.

وانضم هيكل إلى كثير من الهيئات العلمية فكان عضوًا في الجمعية المصرية للقانون الدولي والجمعية المصرية للدراسات التاريخية، واختير عضوًا في مجمع اللغة العربية سنة (١٣٥٩هـ = ١٩٤٠م) فكان من الرعيل الأول لأعضاء المجمع، ويذكر له اقتراحه على المجمع بوضع «معجم خاص لألفاظ القرآن الكريم»، فوافق المجمع على اقتراحه، وكان من أعضاء اللجنة التي تألفت لوضع منهجه.

وبعد حياة طويلة حافلة بجلائل الأعمال توفِّي الدكتور هيكل في (٥ من جمادى الأولى / ٨ من ديسمبر ١٩٥٦م).

الكتاب

ظهر هذا الكتاب في مصر حوالي منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين، ولعله من أهم الكتب التي تناولت سيرة الرسول ﷺ بمنهجية علمية في العصر الحديث، وتكمن أهميته في موضوعه الذي يمكن وصفه بأنه سهل صعب في آن واحد ؛ فهو سهل لتناوله سيرة نبي الإسلام التي يعرفها - ولو سماعًا - الكثير من المسلمين، بغض النظر عما قد تتسم به هذه المعرفة من سطحية حينًا، ومغالاة حينًا آخر، وهو صعب لما قد أضيف إلى جوهر تلك السيرة العطرة من تزيد، وأدخل عليها من إسرائيليات، وما أثاره بعض المستشرقين حولها من شبهات وتفسيرات مغرضة.

من ثم كانت صعوبة المهمة التي نهض بها الدكتور هيكل في الكتاب الذي بين أيدينا، فلم يكن ليضيف جديدًا إذا مضى على درب الذين أرَّخوا لحياة الرسول من قبل، مكتفين بعرض أحداثها، كما وردت في المصادر العربية القديمة، وإنما استخدم المنهج العلمي الصحيح الذي يتحرى الحقيقة ويسعى إلى الوصول إليها مرتكزًا على الروايات الموثوق بها، والتي يدعمها العقل والمنطق، ثم إنه يجتهد في تفسير الأحداث المهمة، واستنباط ما يكمن فيها من دلالة أو مغزى في حياة الرسول ﷺ وحياة المسلمين عامة، ويمحص دعاوى المستشرقين وآراءهم، ويكشف ما بها في أكثر الأحيان من تحامل وانحراف عن القصد. ومرجع هيكل في كل ما نسبه إليهم من تلك الآراء والأقوال مؤلفاتهم التي كتبوها بلغاتهم الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، فهي مصادر أصيلة في بابها، وبهذا يتألق الكتاب في أصالته ومرجعيته العلمية.

لم يدلف الكاتب مباشرة إلى الحديث عن ميلاد محمد ﷺ باعتبار هذا الميلاد

نقطة البدء في التاريخ النبوي، وإنما صدره بمقدمتين إحداهما للطبعة الأولى، والأخرى للطبعة الثانية وفي كلتيهما خاض في قضايا شتى، مثل العلاقة بين الإسلام والمسيحية، وموقف المسلمين من عيسى عليه السلام، وموقف المتعصبين من محمد عليه السلام، والمبادئ الأساسية في الديانتين، والاستعمار والدعوة ضد الإسلام، والإسلام وما صارت إليه الشعوب الإسلامية. كما تناول الجمع الأول للقرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، والخلاف بين كتب السيرة وكتب الحديث، وأثر المنازعات السياسية على رواية الحديث، والقرآن والمعجزات الأخرى، وغير ذلك من القضايا الفرعية.

تبدأ الرؤية التاريخية في الكتاب بالحديث عن الموقع الجغرافي لشبه جزيرة العرب بين جيرانها من مختلف الجهات ؛ ففي الشرق ملوك كسرى في بلاد فارس بديانتهم المجوسية، وفي الشمال قياصرة الروم في بلاد الشام بديانتهم المسيحية، وطرق القوافل التجارية التي تمر بها، وفي أقصى الطرف الجنوبي تقع اليمن بحضارتها التليدة، وفي شبه الجزيرة نفسها تنتشر الوثنية بين القبائل العربية، هذا إلى جانب اليهود بمختلف انتماءاتهم في يثرب (المدينة) وبالقرب منها.

هذا الوضع الجغرافي بما اشتمل عليه من خلافات بين الجيران سياسية ودينية واقتصادية، كان كفيلًا بإثارة ألوان من الصراع والتناحر بين أطرافه قبل ظهور الإسلام. وطوال العصور التي سبقت فجر الدعوة الإسلامية كانت مكة تحظى باحترام العرب جميعا بحكم وجود البيت العتيق فيها الذي يدينون بقداسته منذ تفتحت عيونهم على الدنيا، وعلى أرض مكة كانت قبيلة قريش تتمتع بالسيادة والمنزلة العليا، وفي هذه القبيلة كان بنو عبد مناف أشرف بني عمومتهم في قومهم وأعظم مكانة، وإلى هذه الدوحة الكريمة يرجع نسب محمد عليه السلام، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، ترتفع سلسلة نسبه حتى تصل إلى أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فهو من نسل ابنه إسماعيل، وإسماعيل هو الذي همَّ أبوه إبراهيم

بذبحه امتثالًا لرؤيا أراها ربُّه في المنام، وفي لحظة التنفيذ ساق الله إليه الفداء الذي افتداه به. وكأنما أراد القدر أن يتعرض عبد الله والد محمد لما تعرض له إسماعيل الجد الأعلى للعرب، فقد كان هو الضحية التي خرجت عليها القداح استجابة لنذر عبد المطلب للآلهة لئن رزق بعشرة أبناء ذكور ليذبحن واحدًا منهم، وكان عبد الله أصغر أبنائه وأحبهم لذلك إليه، وحين هم بتنفيذ ما قضت به الآلهة قامت قريش كلها من أنديتها تهيب به ألا يفعل، وانتهى الأمر إلى إجراء القداح بينه وبين عشر من الإبل، فخرجت القداح على عبد الله، فزاد عبد المطلب عشرًا أخرى، وظل كلما خرجت القداح على عبد الله يزيد عشرًا حتى تضاعف عدد الإبل وبلغ المائة، عندئذ خرجت القداح عليها، ولم يطمئن عبد المطلب إلا بعد الضرب على القداح ثلاث مرات، وفي المرات الثلاث خرجت القداح على الإبل، فأطمأن آنئذ إلى رضاء ربه ونُحرت الإبل، ثم تركت لا يُصد عنها إنسان ولا سَبُع.

محمد إذن هو ابن الذبيحين كما جاء في بعض الآثار. وقد كان عبد الله فتى وسيمًا جميل الطلعة زَوَّجه أبوه عبد المطلب وهو في الرابعة والعشرين من عمره من آمنة بنت وهب بن عبد مناف إحدى عقيلات العرب ومن أكرم قبائلها، وحملت آمنة من زوجها، إلا أن الأقدار شاءت أن يتم الوضع بعد وفاة عبد الله بعد أن أصابه مرض وهو في رحلة تجارة إلى الشام، وخرج محمد إلى الحياة يتيما، وإن قرت به عين جده عبد المطلب، وسعد به غاية السعادة.

كانت ولادة محمد في عام ٥٧٠م من ميلاد المسيح، وهو ما يعرف بعام الفيل نسبة إلى حادث تاريخي كبير شهدته مكة وبلاد العرب جميعًا، إذ جاء إليها أبرهة على رأس جيش أرسله النجاشي ملك الحبشة لهدم الكعبة، واصطحب أبرهة معه فيلًا ضخمًا يثير الذعر في نفس من يراه، وأدرك عبد المطلب ومعه قومه من قريش ألا قِبل لهم بمواجهته، فمضوا إلى أطراف مكة، وقال قولته المأثورة «للبيت رب

يحميه»، وكانت عناية الله وجنده أسرع إلى تدمير الجيش والقضاء على الفيل على نحو ما جاء في السورة القرآنية المسماة باسمه.

هل يرهص هذا النصر الذي رافق ميلاد محمد بعهد جديد يشهده البيت على يد هذا الطفل الوليد في مستقبل الأيام؟ طبقا لظاهر الحال كان مثل هذا الاستنتاج آنذاك يبدو أمرًا لا يخطر على البال، فما أن بلغ محمد سن السابعة حتى توفيت أمه، وبذلك أصبح يتيم الأبوين، وغدا في كفالة جده عبد المطلب، لكنه لقى أكمل رعاية، ونشأ منذ مولده نشأة أمثاله من أبناء الأشراف من حيث الإقامة مع مرضعة من البادية تتولى إرضاعه والتعهد بشئونه، وكانت مرضعته حليمة السعدية. وفي أثناء تلك الفترة التي احتضنته فيها وقع حادث روته بعض المصادر التاريخية، وهو ما يعرف بحادث شق الصدر، وخلاصته أن محمدًا قبل أن يبلغ سن الثالثة من العمر كان بصحبة أخ له من الرضاع في مثل سنه، في مكان خلف بيوت بني سعد في باديتهم، وإذا رجلان عليهما ثياب بيض قد أخذاه فأضجعاه فشقا بطنه، وراحا يخوضانه ويقلبانه، ويروى عن حليمة أنها قالت عن نفسها وزوجها، «فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائمًا ممتقعًا وجهه، فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: مالك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئًا لم أدر ما هو». ورجعت حليمة ورجع أبوه إلى خبائهما، وخشى الرجل أن يكون الغلام أصابته الجن، فاحتملاه إلى أمه بمكة.

يتوقف الدكتور هيكل أمام هذه القصة، ويشكك في وقوعها، ويرى أن المستشرقين لا يطمئنون إليها، كذلك لا يطمئن إليها جماعة المسلمين ويرونها ضعيفة السند، فالذي رأى الرجلين في رواية كتاب السيرة إنما هو طفل لا يزيد على سنتين إلا قليلا، وكانت كذلك سن محمد يومئذ، والروايات تجمع على أن محمدا أقام ببني سعد إلى الخامسة من عمره، فلو كان هذا الحادث قد وقع وسنه سنتان ونصف

السنة، ورجعت حليمة وزوجها إذ ذاك به إلى أمه، لكان في الروايتين تناقض غير مقبول. ولذلك يرى بعض الكتاب أنه عاد مع حليمة مرة ثالثة، في حين يرفض أحد المستشرقين الإشارة إلى قصة الرجلين في ثيابهما البيض، ويذكر أنه إن كانت حليمة وزوجها قد نبها لشيء أصاب الطفل فلعله نوبة عصبية أصابته، ولم يكن لها أن تؤذى صحته لحسن تكوينه، ويشير هيكل إلى مقولة مهمة هي أن محمدًا لم يكن في حاجة إلى من يشق بطنه أو صدره ما دام الله قد أعده من يوم خلقه لتلقى رسالته، ويضيف إن دِر منْجم - أحد المستشرقين - يرى أن هذه القصة لا تستند إلى شيء غير ما يفهم من ظاهر الآيات: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٣] ، وأن ما يشير القرآن إليه إنما هو عمل روحي بحت، والغاية منه تطهير هذا القلب وتنظيفه ليتلقى الرسالة القدسية خالصًا، ويؤديها مخلصًا تمام الإخلاص محتملًا عبء الرسالة المضني.

ومهما يكن فقد خلت حياة محمد في شبابه وكهولته من كل ما كان يمارسه أترابه من أبناء مكة من ألوان العبث والمجون، وكأنما تهيئه الأقدار شيئًا فشيئًا للمهمة العظمى، فها هو ذا لا يكتفي بالعزوف عن حياة اللهو والشراب، وإنما انصرفت نفسه منذ بلغ مرحلة النضج إلى التأمل والتفكير فيمن حوله وما حوله، وأعانه على ذلك اشتغاله برعى الغنم، فقد كان يرعى غنم أهله، ويرعى غنم أهل مكة، وهى مهمة تتطلب بقاءه سحابة النهار تحت قبة السماء الصافية في فضاء الصحراء التي تمتد إلى نهاية الأفق، ومن حوله مظاهر الطبيعة الصامتة من جبال ووديان وأشجار وأعشاب، وكلّها تدعو إلى التأمل.

وقد كان أداؤه لهذا العمل بأمانة وإخلاص مدعاة لذيوع وصفه بين أهل مكة بالأمين. ولا غرابة إذن أن تبتهج خديجة بنت خويلد - وكانت سيدة أعمال بمنطق عصرنا الحاضر - حين عرض عليها عمه أبو طالب أن يتولى ابن أخيه رعاية قافلتها

التجارية المسافرة إلى الشام لقاء أجر حدده له، فقبلت على الفور، وأدى محمد عمَله على خير وجه، ودلف الإعجاب به وحبه إلى قلبها، ورحبت به زوجًا حين نَما إلى علمها رغبة محمد في هذا الزواج، وكانت هي إذاك في سن الأربعين، في حين كان هو في سن الخامسة والعشرين.

ومنذ أن بلغ محمد مبلغ الرجال زادت شخصيته مهابة بين أهله في مكة، وثقة في سداد رأيه وحكمته، وأوضح مثال لذلك ما حدث بعد أن أعادت قبائل قريش بناء الكعبة، فقد اختلفت فيما بينها فيمن يكون له الفخار في وضع الحجر الأسود في مكانه من البيت المعظم، وشجر الخلاف بينهم حتى كاد يتحول إلى حرب أهلية، ورضى الجميع بما قاله أحد حكمائهم، وهو الاحتكام إلى أول من يدخل من باب الصفا، وكان محمد أول داخل عقب ذلك، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا بحكمه، وقصوا عليه قصتهم، ففكر قليلًا، ثم قال: هلُمَّ إليَّ ثوبا فأُتى به فنشره وأخذ الحجر، فوضعه بيده فيه، ثم قال: ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب، فحملوه جميعًا إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء، ثم تناوله محمد من الثوب ووضعه في موضعه، وبذلك انحسم الخلاف وانفض الشر.

وإمعانًا منه في حياة التأمل والتفكير التي شغل بها منذ بلوغه سن النضج راح يخلو إلى نفسه من حين لآخر، وينقطع للعبادة والتحنث في غار على جبل حراء يقع على بعد فرسخين إلى الشمال من مكة، وهو المعروف بغار حراء، وقد وجد طمأنينة نفسه وسكينتها في تلك العزلة، والانقطاع عن صخب الحياة العامة في مكة. وفي هذا الغار نزل الوحي عليه. وكان إذ ذاك قد بلغ سن الأربعين، وسارع إلى تصديقه والإيمان بما جاء به أقرب الناس إليه من أهله وأصدقائه. وبدأت حياة جديدة تفيض بصفحات مشرقة من المعاناة والجهاد الحق في سبيل نشر الدعوة إلى الإسلام.

ويضيق المقام عن وصف ألوان الاضطهاد والعنت التي لقيها صاحب الدعوة

وأتباعه من المسلمين طوال ثلاث عشرة سنة قضوها بمكة قبل الهجرة إلى المدينة، كانوا خلالها مثلًا عليا للصبر واحتمال الأذى في سبيل الإيمان بالعقيدة الإسلامية والإصرار عليها. فلما بلغ الأذى بضعفاء المسلمين مبلغًا يفوق طاقة البشر أذن لهم محمد بالفرار بدينهم والهجرة إلى الحبشة التي كان النجاشي ملكًا عليها، وعلى الرغم من نصرانيته قد كان عند حسن الظن به، فأكرم مقام المهاجرين من المسلمين على أرض بلاده، وتمت هذه الهجرة في موجتين، وقعت إحداهما في إثر الأخرى.

وفي هذه المرحلة من تاريخ الدعوة الإسلامية في مكة وقع حادث الإسراء والمعراج الذي يعد معجزة أخرى من معجزات محمد الباهرة. وقد عرض الدكتور هيكل لثلاثة آراء قيلت بشأنها ؛ أولها أن الإسراء والمعراج كليهما إنما كانا بروح محمد ﷺ، الثاني أن الإسراء من مكة إلى بيت المقدس كان بالجسد، وأن المعراج إلى السماء كان بالروح، الثالث أن الإسراء والمعراج كانا جميعًا بالجسد والروح، وأشار هيكل إلى المناقشات المستفيضة التي جرت بين المتكلمين في هذا الموضوع، وأورد لكل رأى سنده من الواقع أو القرآن أو الحديث النبوي. ثم حاول هو أن يقدم رأيًا مختلفًا فحواه أن في الإسراء والمعراج في حياة محمد الروحية معنى في غاية السمو، فهذا الروح القوى قد اجتمعت فيه في ساعة الإسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها، فاجتمع الكون كله في روحه، فوعاه منذ أزله إلى أبده، وصوره في تطور وحدته إلى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق في مغالبتها وتغلبها على الشر والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة.

ونرى أن هذا التصوير لحادث الإسراء والمعراج بتلك العبارة المحلقة في أفق الخيال يؤول عند التحقيق إلى أنه كان بالروح دون الجسد. في حين أن الرأي القائل بأن هذا الحادث كان بالجسد والروح معا تظاهره آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، ويمكن الاستئناس له بالتقدم العلمي الذي استأنس به الدكتور

هيكل، حين أشار إلى أن العلم في عصرنا هذا يقر نظريات قراءة الأفكار ومعرفة ما تنطوي عليه، كما يقر انتقال الأصوات على الأثير بالراديو وانتقال الصور والمكتوبات كذلك مما كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيال. ونحن نضيف أن التقدم العلمي في العقود الأخيرة من القرن الماضي تجاوز ذلك بمراحل، فكان غزو الإنسان للفضاء والانتقال بجسمه إلى أحد الكواكب السيارة والإقامة فوق أرضه مدة من الزمان بلغت عدة أشهر. وإذا كان ذلك بجهد الإنسان فما بالك بمن خلق هذا الإنسان وأودع فيه القدرة العلمية الخارقة على اكتشاف المجهول.

ومهما يكن فقد ظل محمد بمكة ثلاث عشرة سنة يواصل تبليغ الدعوة، ويلاقى هو وأتباعه في سبيل ذلك من الاضطهاد والأذى ما لا قبل لهم باحتماله، كما أسلفنا من قبل، حتى كانت الانفراجة الكبرى في الهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة) بعد أن أذن الله بها لرسوله، وبعد أن مهدت لها اتصالات تمت بينه وبين نفر من أهلها، التقوا به غير مرة، وبايعوه على الإيمان بدعوته، والالتزام بنصرته. وما أكثر ما بذل كفار قريش من محاولات - حين تطاير إليهم نبأ التفكير في تلك الهجرة - للتصدي لها، حتى إن بضعة نفر من أقوياء شبابهم تربصوا به في ساحة داره لقتله ساعة خروجه منها، ولما أعمى الله أبصارهم وخرج محمد دون أن يروه أعلن كبراؤهم جائزة كبرى لمن يمسك به هو وصاحبه أبو بكر في الطريق التي يسلكانها، ولكن هيهات ! فقد شاء الله أن يبلغ الكتاب أجله، وأن تتم الهجرة بسلام، وبها تنفس المسلمون الصعداء، وتبدد ما كان يسيطر على قلوبهم من الخوف.

شكلت الهجرة مسارًا جديدًا في تاريخ الدعوة إلى الإسلام، فها هو ذا مجتمع جديد تتضح معالمه ويأخذ طريقه إلى الاستقرار، ويتطلب تشريعات تنظم له شئون حياته، وهكذا أخذ الوحي يتنزل بآيات كثيرة من القرآن الكريم تلبى هذه الشؤون؛ ومن جهة أخرى كانت تلك الهجرة عاملًا قويًا في توجيه اهتمام الرسول إلى تأمين

البيت من الداخل، فقام بعقد عدد من المعاهدات مع بعض القبائل العربية الموجودة في شبه الجزيرة، والتي يُخشى من تحالفها مع قريش في مكة، ومع اليهود الذين كانوا يقيمون في المدينة وحولها، وفي الوقت نفسه أرسل بعض السرايا للقيام بمناوشات حربية في بعض الأماكن، ثم الإمساك عن القتال إشعارًا للآخرين بأن الدين الجديد منح المسلمين من قوة العقيدة ما يجعلهم يستهينون بالموت في سبيلها، وكانت تلك سياسة مرسومة يقصد بها إدراك غاية معينة، هي تخويف اليهود من ناحية، والسعي من ناحية أخرى للاتفاق مع قريش على ترك الدعوة إلى الدين، وإقامة شعائره حرة مطلقة من غير حاجة إلى حرب أو قتال.

وإذ هدأت نفس النبي في المدينة، وشعر بقوة المسلمين إلى جانبه فقد رأى أن يثأر من قريش التي حملته ومن معه من المسلمين إلى النزوح عن ديارهم بمكة، وقد كانت مسقط رءوسهم، وموطنهم الذي درجوا على أرضه، وأحبوه من شغاف قلوبهم حبًا صوره الرسول بقوله ساعة مغادرته إياها: «والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت».

كانت معركة بدر أولى معارك الثأر التي دارت بين المسلمين وكفار قريش في السنة الثانية من الهجرة، وفيها انتصر المسلمون على قلة عددهم وضعف عدتهم على المشركين. وكان ذلك بتأييد من الله، صوره القرآن بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وتوالت السنون بعد ذلك، ومعها تجددت المعارك بين المسلمين وكفار قريش ومن حالفهم من قبائل العرب من جهة، وبين المسلمين وقبائل اليهود في المدينة وحولها وبالقرب منها من جهة أخرى، ولم يكن الظفر بالنصر في كل منها دانيًا ميسورًا، فقوانين الله في الكون التي تقوم على أن يبلغ المرء ما يسعى إليه إذا أخذ بالأسباب هي القوانين التي يخضع لها المسلمون وغيرهم من البشر، فلا ينال

المسلمون نصرا لم يهيئوا له أسبابه، ولم يتخذوا له عدته ؛ ولهذا ذاقوا مرارة الهزيمة في معركة أحد، حين خالف الرماة عن أمر الرسول بضرورة التزام مواقعهم في حماية ظهور المقاتلين وعدم مغادرتها لأي سبب، حتى لو كانوا منتصرين. وفي معارك أخرى لم يتحقق للمسلمين النصر إلا بعد سقوط كثير من الشهداء والجرحى الذين خضبوا أرض المعركة بدمائهم. وفي معارك ثالثة كان اللجوء إلى المناورة بتعبئة الجيش، واستعراض القوة، ثم التراجع عن القتال بعد تحقيق الغاية المرسومة وهو تكتيك لا يجيده إلا القواد المهرة في إدارة الحرب وفنون القتال، وتشهد به صفحات التاريخ في عصوره المختلفة.

ومع اشتعال المعارك بين المسلمين وأعدائهم بعد الهجرة كان شوق محمد إلى مكة يتزايد، ولا سيما بعد أن تحولت القبلة في الصلاة من بيت المقدس إلى البيت المعظم بها منذ السنة الأولى من الهجرة، ومعها قويت رغبته في الحج إلى ذلك البيت ومعه المسلمون، وكان العام السابع من الهجرة هو الذي عقد فيه النية على الذهاب إلى البلد الحرام، وأعلن ذلك في المسلمين ففرحوا فرحًا شديدًا، ومضوا معه إلى حيث أحرموا من الميقات. إلا أن قريشًا ما إن علمت بذلك حتى استشاطت غضبا، وقررت منعه ومن معه من المسلمين من الدخول إلى مكة، وكأنما رأت في دخولهم إلى مكة تجسيدًا لانتصارهم عليها، وهذا ما ترفضه كل الرفض، ورأى محمد بما آتاه الله من إلهام النبوة وحكمتها أن يترفق في الأمر، ويحسن التأتي له، فأرسل عددًا من الرسل إلى كبار القوم وحكمائهم للتفاوض معهم، وانتهت المفاوضات إلى إبرام صلح الحديبية، أو عهد الحديبية لمدة سنتين أو عشر السنوات كما جاء في بعض الروايات، وهو عهد كان له في التاريخ الإسلامي شأن أي شأن!

فقد كان من بين شروطه أن من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليِّه رده عليهم، ومن جاء قريشًا من رجال محمد لم يردوه عليه، وأن من أحب أن يدخل في عقد

محمد وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعهدهم فليدخل فيه، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا، على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في أغمادها ولا سلاح غيرها. ولأول وهلة يبدو الشرط الأول مخلًا بالتكافؤ بين الطرفين، إلى الحد الذي بدا فيه عمر بن الخطاب - وهو من هو في القرب من رسول الله - غاضبًا وكأنما لا يستوعب العهد في جملته، وذلك الشرط منه بخاصة، ويرى فيه تنازلًا غير مقبول من جانب المسلمين، حتى رده أبو بكر إلى صوابه قائلًا له: الزم غرْزك (رحلك) يا عمر، فإني أشهد أنه رسول الله، فما كان من عمر إلا أن هدأت نفسه، وقال: وأنا أشهد أنه رسول الله ! ومضى محمد في الحفاظ على هذا العهد والوفاء بكل شروطه، وأثبتت الأيام حكمته وبعد نظره السياسي، على نحو كان له أكبر الأثر في مستقبل الإسلام، ومستقبل العرب كله، فقد كانت هذه أول مرة اعترفت فيها قريش بمحمد لا على أنه متمرد عليها، ولكن على أنه نِدُّها وعِدلها، فاعترفت بذلك بالدولة الإسلامية وقيامها، ثم إن إقرارها للمسلمين بحق زيارة البيت وإقامة شعائر الحج اعتراف منها بأن الإسلام دين مقرر معترف به من أديان شبه الجزيرة. وهدنة السنتين أو السنوات العشر جعلت المسلمين يطمئنون من ناحية الجنوب، ولا يخشون غارة قريش، ولم يمض شهران اثنان من إبرام هذا الاتفاق حتى بدأ محمد في مخاطبة الملوك ورؤساء الدول الأجنبية يدعوهم إلى الإسلام، فكسب الإسلام بذلك أعظم الكسب، وأخذت الدعوة مجالها في الانتشار. أما ما جاء في الاتفاق من أن من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليِّه رده عليهم، ومن جاء قريشا من المسلمين لم ترده على محمد فقد كان رأى محمد في هذا أن من ارتد عن الإسلام ولجأ إلى قريش من المسلمين ليس جديرًا بأن يعود إلى جماعة المسلمين ؛ أما من أسلم من قريش ولجأ إلى محمد فرده إليهم مرة أخرى فسوف يجعل الله له مخرجا.

وصدَّقت الحادثات رأى محمد بأسرع مما كان يظن أصحابه، وفي هذا السياق تأتى قصة أبى بصير الذي هرب من مكة، وأعلن إسلامه أمام الرسول في المدينة، فطلب منه الرسول أن يعود من حيث أتى، التزاما بالعهد الذي بينه وبين قريش، وألح أبو بصير على الرسول ألا يسلمه إلى الكفار، لكن رسول الله أبى النكوص عن العهد، وأذعن أبو بصير لمطلب الرسول، وعاد مع الرسول الذي كانت قريش قد أوفدته لطلبه من محمد. وفي موضع بين المدينة ومكة تمكن أبو بصير من قتل رسول قريش، فهُرع المولى الذي كان يرافقه إلى المدينة ليُبلغ الرسول بما حدث. لكن أبا بصير لم يكن في حوزته، وليس له سلطان عليه فلم يتخذ الرسول أي إجراء ؛ هذا في الوقت الذي راح فيه أبو بصير يترصد طريق القوافل التجارية لقريش التي تمر بها من مكة إلى الشام، وانضم إليه أمثاله من الذين أسلموا من أهل مكة، وحال التزام محمد بالعهد من انضمامهم إلى جواره في المدينة، وأخذت هذه الجماعة تشن غاراتها على تجارة قريش حتى نغَّصت عليها حياتها، وأيقنت أن هذا الشرط قد أصبح وبالًا عليها، وأنه جلب عليها من الخسائر أضعاف ما بدا أنه حقق لها من الكرامة والانتصار، ولم تر بدًّا من أن تناشد محمدًا بالرحم الذي بينها وبينه من أن لا يرد إليها من جاءه من أهل مكة مسلمًا حتى يظل طريق التجارة آمنًا، وسقط بذلك الشرط الذي أحفظ عمر بن الخطاب، والذي كان سببًا في ثورته على أبى بكر، وآوى محمد أصحابه وعاد طريق الشام آمنًا.

ومع ذلك لم تثبت قريش وحلفاؤها طويلًا على احترام عهد الحديبية، وما لبث دعاة الشر من رجالها أن حرضوا حلفاءهم على نقض هذا العهد بالاعتداء على حلفاء محمد، وكان بينهم وبينهم تارات قديمة. عندئذ أيقن محمد أن قريشًا تغيرت نظرتها إلى المسلمين بعد موقعة مؤتة التي جرت أحداثها بين المسلمين والروم، وأُنهكت فيها قوات المسلمين إنهاكًا شديدًا وانتهت بانسحابهم انسحابًا أحكم خطته

خالد بن الوليد، بعد أن أبلى في قتالهم بلاء حسنًا. وكأنما رأت قريش أن هذه المعركة كانت هزيمة للمسلمين قضت على سلطانهم، وأن الأمور ينبغي أن تعود كما كانت قبل عهد الحديبية، وأنها بوسعهم أن تكون حربًا على المسلمين ومن في عهدهم من غير أن تخشى من محمد قصاصًا.

وكان رد محمد ﷺ على ذلك بالتهيؤ الجاد لفتح مكة، مع الحرص كل الحرص على أن يدخلها دون قتال إجلالًا لقدسية البيت المعظم، ثم كان إعلان عفوه الشامل عن قريش غداة بسط سلطانه على البلد الحرام إذ قال لهم: «**ما تظنون أنى فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا: أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

والواقع أن هذا الفتح تقدم بالدعوة الإسلامية خطوة كبيرة إلى الأمام وقد أعقبته مناوشات ومعارك قليلة بين المسلمين وأعدائهم أبرزها غزوة تبوك التي كانت بين المسلمين والروم على حدود بلاد الشام، ومع ما لقيه المسلمون فيها من عنت ومشقة بلغت حد «العُسْرة» كما وصفها القرآن في سورة التوبة فقد كتب الله لرسوله فيها النصر، وبذلك تمت كلمة ربك في شبه الجزيرة كلها، وأمن محمد كل عادية عليها، وأقبل سائر أهلها وفودًا عليه يقدمون الطاعة ويعلنون لله الإسلام، وكانت الأشهر يتلو أحدها الآخر حتى اقترب موعد الحج، ولم يكن النبي ﷺ أدى الفريضة على تمامها يومئذ كما يؤديها المسلمون اليوم. وقد كان الكفار حتى ذلك الوقت على عهدهم في الجاهلية يحجون إلى الكعبة في الأشهر الحرم والكفار نجس، فليبق إذًا بالمدينة حتى يأذن الله له بالحج إلى بيته، وليخرج أبو بكر في الناس حاجًا.

وخرج أبو بكر في ثلاثمائة مسلم قاصدًا مكة، والأوضاع المستقرة منذ زمن بعيد ما تزال سارية، فالمشركون يحجون بيت الله الحرام، وقد كان بين محمد والناس عهد عام ألا يصَدَّ عن البيت أحد جاءه، ولا يُخاف أحد في الأشهر الحرم، وما دامت هذه العهود فسيظل بيت الله يحج إليه من يُشرك بالله ومن يعبد غير الله، وسيظل

المسلمون يرون عبادة الجاهلية تؤدى بأعينهم حول الكعبة، وهم بحكم هذه العهود الخاصة وهذا العهد العام لا قبل لهم بصد أحد عن حجه وعبادته، وإذا كانت الأصنام التي يعبدها العرب قد حُطِّم الكثير منها، وحُطِّم منها كل ما كان في جوف الكعبة وما حولها فإن في هذا الاجتماع في بيت الله المقدس بين الثائرين على الشرك وعلى الوثنية، والمقيمين على هذا الشرك وتلك الوثنية تناقضًا غير مفهوم. لكن موسم الحج بدأ والمشركون قد أتى منهم من أتى من كل فج يقضى مناسك حجه، فليكن هذا الاجتماع أوان تبليغهم أمر الله بنقض كل عهد بين الشرك والإيمان إلا من عهد عُقد لأجَل فإنه يبقى إلى أجله.

ولهذه الغاية أوفد النبي على بن أبى طالب كي يلحق بأبي بكر، وكي يخطب الناس حين الحج يوم عرفة بما أمر الله ورسوله، وحضر على في إثر أبى بكر والمسلمين الذين برزوا إلى الحج معه. فلما اجتمع الناس بمنى يؤدون مناسك الحج وقف على بن أبى طالب، وإلى جانبه أبو هريرة فنادى على في الناس يتلو عليهم قوله تعالى من أول سورة التوبة ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ [التوبة:١] براءة قوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:٣٦]. فلما أتم تلاوتها وقف هنيهة ثم صاح بالناس: «أيها الناس ! إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان. ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته». صاح على في الناس بهذه الأوامر الأربعة، ثم أجَّل الناس أربعة أشهر بعد ذلك اليوم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم. ومن يومئذ لم يحج مشرك، ولم يطُف بالبيت عريان، ومن يومئذ وضع الأساس الذي تقوم عليه الدولة الإسلامية.

فلما كانت السنة العاشرة من الهجرة وأقبل ذو القعدة وأوشك أن يولى، ولم يكن النبي قد حج الحج الأكبر وإن يكن قد اعتمر فأدى الحج الأصغر قبل ذلك

مرتين. فقد صح عزمه على أداء مناسك الحج ودعا الناس إلى الخروج معه لأداء هذه الفريضة، وما كاد الخبر يذيع في شبه الجزيرة حتى توافد المسلمون إلى المدينة من كل حدب وصوب، وضربت الخيام لمائة ألف أو يزيدون جاءوا تلبية لدعوة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام.

وما إن حل يوم الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة من تلك السنة حتى سار النبي وأخذ نساءه معه، وسار الألوف المؤلفة من المسلمين معه قاصدين بيت الله الحرام وكانت هذه الحجة حجة الوداع، التي خطب الرسول فيها خطبته الشهيرة على جبل عرفات، ونعى في مطلعها نفسه ؛ إذ قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه.

«أيها الناس ! اسمعوا قولي فإني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا»، ثم مضى يعلن مجموعة من المبادئ والقيم الأساسية الخالدة لشريعة الإسلام، وعاد الرسول ومن صحبه من المسلمين بعد أداء مناسك الحج، وتوجه كل منهم إلى دياره التي قدم منها، وكان تفكير الرسول في ذلك الوقت في أمر البلاد الخاضعة للروم والفرس بالشام ومصر والعراق، فهو قد أمن ناحية شبه جزيرة العرب جميعًا بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجًا، وبعد أن جعلت الوفود تأتى تباعًا تعلن اعتناق الإسلام والعيش تحت ظلاله ؛ لذلك لم يطل بالمسلمين المقام بالمدينة بعد عودهم من حجة الوداع بمكة حتى أمر النبي بتجهيز جيش ضخم إلى الشام لمحاربة الروم الذين سبق أن انسحب جيش المسلمين أمامهم في غزوة مؤتة كما أشرنا من قبل، وإن برع خالد بن الوليد في أن يجعل انسحابه عملًا تكتيكيًا لا يدل على التراجع بقدر ما يدل على تغيير أسلوب القتال.

ومن هنا كان رسول الله يحسب لناحية الروم حسابها، ويرى ضرورة توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام حتى لا يعود إليها الذين جلَوْا عن شبه الجزيرة من اليهود وغيرهم إلى فلسطين يناوئون أهلها، وقد جعل في هذا الجيش المهاجرين

الأولين، ومنهم أبو بكر وعمر، وأمَّر على الجيش أسامة بن زيد بن حارثة، وكان إذ ذاك فتى لا يكاد يبلغ العشرين من العمر. لكن الحُمَّى دهمت رسول الله فتوقف الجيش عن المسير، وظل أيامًا حتى التحق الرسول بالرفيق الأعلى، وبايع المسلمون وعلى رأسهم عمر بن الخطاب أبا بكر الصديق خليفة للمسلمين. وهكذا انطوت صفحة حياة أعظم الخالدين على ظهر الأرض، غاب بجسده فحسب، أما دعوة الإسلام التي بلَّغها فهي باقية تضيء الآفاق أمام الإنسانية جمعاء إلى يوم الدين.

ولا يتسع المقام لتناول الجانب الأخلاقي من حياة محمد ﷺ فذلك ما لا تفي به المجلدات الكثيرة، فهو نبع لا ينضب من قيم الحق والخير والجمال والعدل والتسامح والرحمة وما إلى ذلك مما يندَّ عن الحصر. إلا إن موضوعًا شخصيًا مهمًا لابد أن نعرض له في هذا السياق، وقد تناوله المستشرقون وغيرهم وأثاروا حوله كثيرًا من الغبار حول شخصية الرسول، ذلك هو تعدد أزواجه، فقد بلغ عددهن تسعًا في بعض الروايات وقيل إحدى عشرة، وذلك في رأيهم دليل على تعلقه بالجنس وحبه للمرأة، على نحو يتنافى مع ما كان يدعو إليه من الزهد في شهوات الحياة الدنيا والبعد عن نزواتها. بل إن بعضهم راح يفتن في وصف قصة زواجه من زينب بنت جحش حين رآها لأول مرة ؛ فهو يقول إن زينب كان قد تزوجت من زيد بن حارثة، وقد مر محمد ببيت زيد، وهو غائب فاستقبلته زينب، وكانت في ثياب تبدى محاسنها، فوقع منها في قلبه شيء لجمالها، فقال: سبحان مقلب القلوب ! ثم كرر هذه العبارة ساعة انصرافه، فسمعتها زينب، ورأت في عينيه وهج الحب، فأعجبت بنفسها، وأبلغت زيدًا ما سمعت، فذهب من فوره إلى النبي يذكر له استعداده لتسريحها، فقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله، لكن زينب لم تحسن من بعد معاشرته فطلقها، وأمسك محمد عن زواجها، وقلبه في شغل بها حتى نزل قوله – تعالى – : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ

﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، إذ ذاك تزوجها فأطفأ بزواجه لاذع حبه ومتوهج غرامه.

بل إن بعضًا آخر من المستشرقين يصور اشتعال جذوة الحب عند محمد بصورة من صنع خياله ؛ فمن قائل بأنها كانت نصف عارية أو تكاد، وقد انسدل ليل شعرها على جسمها الناعم بما يكنه من كل معاني الهوى، في حين يذكر آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفة زينب، وكانت ممددة على فراشها في ثياب نومها، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها، فكتم ما في نفسه، وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلًا.

وفي الرد على مزاعم المستشرقين فيما يتعلق بتعدد أزواج الرسول يرى الدكتور هيكل أنه لو افترضنا صحة ما ذهب إليه المستشرقون ما طعن ذلك على عظمة محمد أو على نبوته ورسالته، فالقوانين التي تجرى على الناس لا سلطان لها على العظماء فأولى ألا يكون لها سلطان على المرسلين والأنبياء، وثمة أمور مشابهة في حياة موسى وعيسى عليهما السلام، وكلها تؤيد عدم خضوع الرسل والأنبياء لما يخضع له عامة الناس من القوانين.

ومع ذلك فإن الاكتفاء بمثل هذا الرد مع منطقيته يمثل تجنيًا شديدًا على التاريخ وعلى عظمة محمد وجلال رسالته ؛ فهو لم يكن، كما صور هؤلاء وأولئك، رجلًا يأخذ بعقله الهوى، وهو لم يتزوج من تزوج من نسائه بدافع شهوة أو غرام، على حين كان تعدد الزوجات أمرًا شائعًا بين العرب في ذلك العهد، وعلى حين كان له مندوحة في التزوج على خديجة أَنْ لم يعش له منها ذكر، في وقت كانت توأد فيه البنات، وكان الذكور وحدهم هم الذين يعتبرون خلفًا. وقد ظل محمد مع خديجة سبع عشرة سنة قبل بعثه، وإحدى عشرة سنة بعده، وهو لا يفكر قط في أن يشرك معها غيرها في فراشه، ولم يعرف عنه في حياة خديجة، ولا قبل زواجه منها أنه كان

ممن تغريهم مفاتن النساء، في وقت لم يكن فيه على النساء حجاب، بل كانت النساء يتبرجن فيه، ويبدين من زينتهن ما حرَّم الإسلام من بعد، فمن غير الطبيعي أن تراه وقد تخطَّى الخمسين ينقلب فجأة هذا الانقلاب الذي يجعله ما يكاد يرى بنت جحش، وعنده نساء خمس غيرها، من بينهن عائشة التي أحب، وظل يحب طوال حياته حتى يفتن بها، وحتى يستغرق تفكيره ليله ونهاره، وليس من الطبيعي أن تراه، وقد تخطى الخمسين، يجمع في خمس سنوات أكثر من سبع زوجات، وفي سبع سنوات تسع زوجات، وذلك كله بدافع من الرغبة في النساء.

ثم إن التاريخ ومنطق حوادثه أصدق شاهد بكذب روايات المبشرين والمستشرقين في شأن تعدد أزواج النبي ؛ فزواجه ممن تزوجهن بعد خديجة إنما كان لأسباب نبيلة تعلو على أفهام ذوي الأغراض السيئة، وهى بعيدة كل البعد عن الاستمتاع الجنسي بالمرأة ؛ فسودة بنت زمعة - على سبيل المثال - تزوجها الرسول بعد أن قبض الله إليه خديجة، ولم يُرْو أن سودة كانت من الجمال أو الثروة أو المكانة بما يجعل لمطمع من مطامع الدنيا أثرًا في زواجه منها، إنما كانت زوجًا لرجل من السابقين إلى الإسلام الذين احتملوا في سبيله الأذى، وهاجروا إلى الحبشة بعد أن أمرهم النبي بالهجرة وراء البحر إليها، وقد أسلمت سودة وهاجرت معه، وعانت من المشاق ما عانى، فإذا تزوجها محمد بعد ذلك ليعولها، وليرتفع بمكانتها إلى أمومة المؤمنين فذلك أمر يستحق من أجله أسمى التقدير وأجل الحمد.

أما عائشة وحفصة فهما ابنتا وزيريه أبى بكر وعمر، وهذا الاعتبار هو الذي دعا محمدًا أن يرتبط وإياهما برابطة المصاهرة بالتزوج من ابنتيهما، كما دعاه أن يرتبط بعثمان وعلى برابطة المصاهرة بتزويجه ابنتيه منهما. وقد كان زواجه من زينب بنت خزيمة، ومن أم سلمة ضربًا من الرعاية لكلتيهما بعد أن فقدت كل منهما زوجها في معارك الإسلام الأولى، ولم تكن أي منهما ذات جمال يسعى إليه محمد، فزينب بنت

خزيمة كانت زوجًا لعبيدة بن الحارث بن المطلب الذي استشهد يوم بدر، ولم تكن ذات جمال، وإنما عرفت بطيبتها وإحسانها حتى لقِّبت أم المساكين، وكانت قد تخطت الشباب، فلم يكن إلا سنة أو سنتان ثم قبضها الله إليه، فكانت بعد خديجة الوحيدة من أزواج النبي التي توفيت قبله. أما أم سلمة فكانت زوجًا لأبى سلمة، وكانت له منه أبناء عدة، وكان أبو سلمة جُرح في أحد، ثم برأ جرحه، فعقد له النبي لحرب بني أسد فشتتهم، وعاد إلى المدينة بما غنم، ثم نغر عليه جرح أحد، وما زال به حتى قضى عليه، وقد حضره النبي وهو على فراش موته، وظل إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات فأسبل عينيه، وبعد أربعة أشهر من وفاته خطب محمد أم سلمة إلى نفسها، فاعتذرت بكثرة العيال، وبأنها تخطت الشباب، فما زال بها حتى تزوج منها، وحتى أخذ نفسه بالعناية بتنشئة أبنائها، ولو كان محمد يتطلع إلى المتعة لذهب إلى غيرها من بنات المهاجرين والأنصار ممن يفقنها جمالًا وشبابًا وثروة، ومن لا يبهظه عبء عيالها، لكنه إنما تزوج منها لهذا الاعتبار السامي الذي دعاه ليتزوج من زينب بنت خزيمة، والذي زاد المسلمين به تعلقًا، وجعلهم يرون فيه نبي الله ورسوله، ويرون فيه إلى جانب ذلك أبًا لهم جميعًا: أبًا لكل مسكين ومحروم وضعيف وبائس وعاجز، أبًا لكل من فقد أباه شهيدًا في سبيل الله.

أما زواجه من زينب بنت جحش فلها مسار آخر، فزينب هي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب وقد ربيت بعينه وعنايته، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى، وأنه كان يعرفها، ويعرف أهي ذات مفاتن أم ليست كذلك؟، قبل أن تتزوج زيدًا، وأنه هو الذي خطبها على زيد مولاه، وقد أبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون أخته وهى قرشية هاشمية، وابنة عمة الرسول، تحت عبدٍ رقٍّ اشترته خديجة ثم أعتقه محمد، ورأى في ذلك على زينب عارًا كبيرًا، وكان ذلك عارًا حقًا عند العرب كبيرًا، فلم تكن بنات الأشراف الشريفات ليتزوجن من

موالٍ وإن اعتقوا، لكن محمدًا يريد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة في النفوس على العصبية وحدها، وأن يدرك الناس جميعًا أن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وهو لا يرى أن يستكره لذلك امرأة من غير أهله فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هي التي تحتمل هذا الخروج على تقاليد العرب، وهذا الهدم لعاداتها، وليكن زيد مولاه الذي تبنَّى، والذي أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق في أن يرثه كسائر أبنائه سواء، هو الذي يتزوجها فيكون مستعدًا للتضحية التي أعد الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتُّخذوا أبناء، ولْيُبد محمد إصراره على أن تقبل زينب، ويقبل أخوها عبد الله بن جحش زيدًا زوجًا لها، ولينزل في ذلك قوله – تعالى- : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ولم يبق أمام زينب وأخيها، بعد نزول هذه الآية، إلا الإذعان، فقالا: رضينا يا رسول الله، وبني زيد بزينب بعد أن ساق النبي إليها عنه مهرها، فلما سارت زينب إلى زوجها لم يسلَسْ له قيادها، ولا لان إباؤها، واشتكى زيد إلى النبي غير مرة من سوء معاملتها إياه، واستأذنه غير مرة في تطليقها، فكان النبي يجيبه: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، لكن زيدًا لم يطق معاشرة زينب وإباءها عليه فطلقها.

وكأن الشارع الحكيم قد أراد أن يبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها، ومن إعطاء الدعيِّ جميع حقوق الابن، ومن إجرائهم عليه أحكامه حتى في الميراث وحرمة النسب، ولا يجعل للمتبنَّى إلا حق المولى والأخ في الدين فنزل قوله – تعالى-: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] . ومعنى هذا أنه يجوز للمدعى أن يتزوج ممن كانت زوجا لمتبنَّاه، ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذا؟ ومَنْ من العرب يستطيعه، وينقض به تقاليد الأجيال السالفة جميعًا؟

إن محمدًا نفسه على قوة عزيمته وعميق إدراكه لحكمة الله في أمره قد وجد فى نفسه الغضاضة في تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيد إياها، ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس في خرق هذه العادة القديمة المتأصلة في نفوس العرب، وذلك ما يريده تعالى في قوله: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. لكن محمدًا كان القدوة في كل ما أمر الله به، وما ألقى عليه أن يبلغه للناس، فلا يخشى ما يقول الناس في تزوجه من زوج زيد مولاه، فخشية الناس ليست شيئًا إلى جانب خشية الله بتنفيذ أمره، وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبني والادعاء، وفي ذلك نزل قوله – تعالى-: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب:٣٧]. هذه هي قصة زواج الرسول من زينب بنت جحش، وتلك أسبابها التشريعية التي دعت إليها، وبذلك تبطل كل مزاعم المستشرقين وخيالاتهم المريضة التي أشرنا إليها من قبل.

ثمة موضوعان آخران عرض لهما الدكتور هيكل، واختتم بهما كتابه «حياة محمد»، هذان الموضوعان لا يدخلان في سيرة حياة النبي باعتبارهما من وقائعها المباشرة، لكنهما يتصلان بها أوثق اتصال من حيث إنهما حصاد ما أتى به هذا الرسول من منهج جديد للحياة. أول الموضوعين «الحضارة الإسلامية كما يصورها القرآن»، وفيه يكشف الكاتب ما بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية من تناقض في الفلسفة التي تنطلق منها كلتاهما والمبدأ الذي ترتكز عليه. فالحضارة الغربية تقوم على أساس اقتصادي مادي قوامه المنفعة في المقام الأول. أما المسألة الروحية فهي مسألة فردية بحتة، ولا محل لأن يعنى الناس جماعة بها ؛ ومن ثم كانت الإباحة في العقيدة بعض ما قدمه أهل الغرب، وكانوا أشد تقديسًا لها من تقديسهم

الإباحة في الخلق، وهم أشد تقديسًا للإباحة في الخلق منهم لحرية الحياة الاقتصادية المقيدة بالقانون تقييدًا ينفذه الجندي وتنفذه الدولة بكل ما أوتيت من قوة.

أما الحضارة الإسلامية فهي حضارة روحية أولًا، والنظام الروحي فيها هو أساس النظام التهذيبي وأساس قواعد الخلق، والمبادئ الخلقية أساس النظام الاقتصادي ؛ وهكذا يكون الإيمان بالله هو الركيزة الأولى للحضارة الإسلامية، وتأتى العبادات جميعًا من صلاة وصوم وزكاة وحج لتعمق هذا الإيمان وتزيده رسوخا في جوانح النفس المسلمة، وبوحي من هذا الإيمان يأتي الالتزام بالقيم الإنسانية العليا من البر والرحمة والمودة والتعاون والصدق والوفاء والأمانة وتحريم الربا، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وما إليها مما يطول الحديث عنه.

الموضوع الثاني «المستشرقون والحضارة الإسلامية» وفيه قام الدكتور هيكل بتفنيد رأى المستشرق الأمريكي واشنجتون إيرفنح الذي عاش في القرن التاسع عشر، وكتب كتابًا عن السيرة النبوية أشار فيه إلى أن هناك ركنًا سادسًا للإسلام يضاف إلى أركانه الخمس المعروفة، وهذا الركن هو ما أسماه «الجبرية»، وذهب إلى أن محمدًا أقام جل اعتماده على هذه القاعدة لنجاح شؤونه الحربية، فقد قرر أن كل حادث يقع في الحياة قد سبق في علم الله تقديره، فكتب في لوح الخلد قبل أن يبرأ الله العالم، وأن مصير كل إنسان وساعة أجله قد عُيِّنت تعيينًا لا مرد له، فلا يمكن أن تتقدم أو أن تتأخر بأي مجهود من مجهودات الحكمة الإنسانية أو بعد النظر.

بهذا الاقتناع كان المسلمون يخوضون غمار المعارك دون أن ينال منهم الخوف، فما دام الموت في هذه المعارك هو عِدْل الاستشهاد الذي يسرع بصاحبه إلى الجنة فقد كانت لهم الثقة بالفوز في حال الاستشهاد أو الانتصار.

وقد رد الدكتور هيكل على هذا الرأي، وأبان ما ينطوي عليه من جهل بحقيقة الإيمان بالقضاء القدر، فعلم الله بكل ما يقع في الوجود قبل أن يبرأ الله الوجود،

وأنه جل شأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين إنما يرجع إلى أن الله برأ للكون سننًا لا تحويل لها، ويجب أن تنشأ عنها آثارها، ولا يقتضى هذا العلم الأزلي إجبار المرء على أن يأتي ما يأتي من الأفعال، أو يترك ما يتركه منها، بل إن له حرية الاختيار في أن يفعل أولا يفعل، وهذه الحرية هي مناط الثواب والعقاب، وينتهي هيكل إلى أن ثمة كثيرًا من الحجج تثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن الإسلام دين سعى وكفاح وجهاد في نواحي الحياة الروحية والعلمية والدينية والدنيوية جميعًا، وأن الله كتب في سنة الكون أن الإنسان إنما يُجزى بعمله، وأنه جل شأنه لا يظلم أحدًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وهم يظلمون أنفسهم حين يظنون أنهم يصلون إلى رضا الله بالقعود والتواكل باسم التوكل على الله.

إن كتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل عمل علمي قَيِّم في التأريخ للسيرة النبوية العطرة، زخر بفيض هائل من أحداثها ومواقفها، ودعمها بتحليلاته الدقيقة، ومن العسير، إن لم يكن من المتعذر، الإلمام بكل ذلك في هذه العُجالة، ومن ثم لم يكن بدٌّ من المرور العابر على أكثرها، والتلبث يسيرًا أمام أقل القليل منها، وهو ما نراه أجل شأنًا ؛ وذلك سعيًا إلى بيان ما يمكن أن يكون قد خفى من مغزاها، أو تبديد ما قد أثير حولها من شبهات.

*****